

الفصل الثانى : تطبيقات على المنهج

القارىء الكريم ...

لكى نطل على عالم د. المسيرى الفكرى من خلال منهجه الذى عرضناه فى الفصل السابق، نعرض فى هذا الفصل ثلاثة موضوعات رئيسية فى فكره:

1 - رسالته الدكتوراه.

2 - كتابه: الفردوس الأرضى.

3- رؤيته لإشكالية التحيز.

ثم نفرد بعد ذلك فصلاً مستقلاً للحديث عن «الموسوعة». ونختتم بفصل من خارج عالم السياسة بعنوان «فى عالم الأدب والفن».

أولاً: رسالة الدكتوراه

الثمرة السابعة والتسعون...

صراعات حول الرسالة

بدأت في كتابة رسالتى للدكتوراه عام 1967، وموضوعها:

«الأعمال النقدية لوليام وردزورث وويلت ويتمان:

دراسة في الوجدان التاريخي والوجدان المعادى للتاريخ».

وقد اعتبرت الرسالة قضية تهمنى على المستوى الفكرى والشخصى، إذ وجدت في ويتمان رمزاً للسيولة والعدمية واللامعيارية التى تتهدد الإنسان، وهو ما كان شاغلي الشاغل في هذه الفترة. وقد استحسن زملائي هذا الاهتمام فأعلن بعضهم أنه لن يستمر في كتابة أبحاث عن موضوعات عامة جافة، وأنه لن يستأنف برنامج الدراسات العليا إلا بعد أن يجد موضوعاً يهيمه على المستوى الفكرى والشخصى.

* لجنة المناقشة

تحمس أستاذى البروفسير وايمر للرسالة بشكل منقطع النظير، فكان نعم المشرف ونعم الصديق. وحين انتهيت من كتابة الرسالة اختار ثلاثة أساتذة ممتحنين لمناقشتها من بينهم الأستاذ جورج، وهو حالياً من كبار الكُتّاب الأمريكيين. كنت أمقت الرجل، وكان - والحمد لله - يبادلنى المشاعر نفسها، كان جوهر الخلاف بيننا أنه ينظر إلى الأعمال الأدبية كنظرته للكائنات الطبيعية التى تولد وتموت تبعاً للحتمية البيولوجية، ومن ثم يرى أن الأنماط الأدبية تولد وتموت من تلقاء نفسها كذلك (كالملاحم البطولية

التي سادت فترة ثم اختفت)، وهذه النظرة تؤصل مفهوم «نهاية التاريخ». أما أنا فأعتقد أن اختفاء أنماط أدبية معينة إنما يرجع إلى مجموعة من الأسباب الإنسانية والفكرية والتاريخية المركبة وليس لعنصر مادي واحد، وهذا هو جوهر «المذهب الإنساني».

حذرت أستاذي البروفسير وايمر من الأستاذ جورج، وقلت له إن الهوة الفكرية التي تفصل بيني وبينه ضخمة، وبالتالي سيكون من الصعب عليه مناقشة رسالتي (فهناك مساحة كبيرة تفصل بين أنصار نهاية التاريخ وأنصار المذهب الإنساني)، فضحك الأستاذ وايمر وقال: «أنت ديكتاتور وسلطان شرقي لا تفهم الديمقراطية الأمريكية وروح الليبرالية»، فقلت له: «أنا أفهم جيداً حدود الديمقراطية والليبرالية؛ هناك خطوط حمراء إن عبرتها قُضى علي، وقد عبرت هذه الخطوط في رسالتي للدكتوراه: طالب من العالم الثالث يتحدى الرؤى الغربية السائدة، بل يتعامل مع الحضارة الأمريكية بطريقة أنثروبولوجية محايدة، تماماً كما يتعامل أى أنثروبولوجي غربي مع إحدى القبائل الإفريقية». ضحك أستاذي وأصر على موقفه، فقام بإرسال نسخة من الرسالة إلى البروفسير جورج وأخرى إلى البروفسير وليام فيليبس William Philips وثالثة إلى البروفسير ماريوس بيولي Marius Bewley (وكان من أهم المتخصصين في الأدب الرومانسي).

وكنت قد تعرضت في رسالتي لمسألة الشذوذ الجنسي عند ویتمان، وبيّنت أنها ليست انحرافاً شخصياً وإنما هي جزء من رؤيته ویتمان للكون وتوجهه الحاد نحو اللذة، كما أن العداء للتاريخ وإعلان نهايته يؤدي إلى التمرکز المتطرف حول الذات، ومن ثم فإن الشذوذ الجنسي هو النتيجة المنطقية لهذا الاتجاه. هذا على عكس الفعل الجنسي بين الرجل والمرأة (وبخاصة في إطار الأسرة) فهو فعل اجتماعي تاريخي، له نتائج إنسانية عامة

إذ يعيد المجتمع إنتاج نفسه من خلاله فيضمن استمراره وتربطه. ومن هنا تنبأت بانتشار الشذوذ الجنسي في الولايات المتحدة مع ازدياد التمرکز حول الذات وتساعد معدلات البحث عن المنفعة الشخصية واللذة الذاتية (هذا في أواخر الستينيات قبل أن تصبح مناقشة مثل هذه الموضوعات أمرًا مألوفًا). كما تنبأت بأن مرحلة الشذوذ ستتبعها مرحلة أكثر انغلاقًا على الذات، وهي مرحلة الاستمناء، حيث لا يدخل الإنسان في علاقة إلا مع نفسه، ولعل انتشار الإيدز والإنترنت سيساعدان على ذلك.

أذكر هذا الموضوع لأن البروفسير ماريوس بيولي كان شاذًا جنسيًا، وكان صديقه البورتوريكي يأتي لمقابلته في القسم، وقد مات البروفسير بيولي بصورة تشبه مرض الإيدز الذي لم يكن قد أُكتشف بعد. أما البروفسير جورج فقد كان متزوجًا، ومع ذلك أخبرت أستاذي (ساخرًا) بأن موقفه من العالم هو موقف المتمركز تمامًا حول ذاته، فهو شاذ جنسيًا من الناحية الفكرية والنفسية، رغم أنه متزوج وأنجب أطفالًا، وبالفعل دعا هذا البروفسير أعضاء أسرته عام 1972، وأخبرهم بأنه سيطلق زوجته ليعيش مع صديقه، وقد أصبح بعد ذلك من أكبر المدافعين عن الشذوذ الجنسي.

الثمرة الثامنة والتسعون...

موضوع الرسالة: الوجدان التاريخي والوجدان المعادي للتاريخ

هناك رأي سائد في الأوساط العلمية يرى أن وردزورث (إنجليزي أنجليكاني) قد «أثر» في ويتمان (أمريكي بروتستانتي من طائفة الكويكر). وكان المطلوب مني في رسالة الدكتوراة أن أحدد هذا الأثر بأسلوب الموضوعاتية المتلقية الفوتوغرافية. ولكني فعلت العكس تمامًا! فانطلقت في الرسالة من رفضي لفكرة التأثير والتأثر ومن الإيمان بالعقل التوليدي والإنسانية المشتركة.

* الجزء الأول من الرسالة (الأطروحة)

لجأت في عرضي لوجهة نظري إلى حيلة سماها أستاذي خطة دياكتيكية، أي أنها تحوى الشيء وضده ثم تصل إلى حل يجمع بينهما. بدأت بأن اصطنعت موقف العالم الأكاديمي القح صاحب الموضوعاتية الفوتوغرافية الذى يؤمن بأهمية تَعَقُّبِ علاقات التأثير والتأثر بين الكُتَّاب وكأنه شرلوك هولمز. وبصرامة بالغة مصطنعة، بيّنت أن وردزورث أثر على ویتمان فى 24 موضعًا مختلفًا، وقدمت البراهين القوية على ذلك من خلال عمودين متقابلين، توجد فى الأول مقتطفات من شعر ونقد وردزورث، وأدرجت فى الثانى مقتطفات من شعر ونقد ویتمان، تبين تأثير وردزورث عليه.

ولكننى فى خاتمة هذا الجزء أعلنت بطريقة فجائية وغير متوقعة أن هذه حقيقة لا قيمة لها على الإطلاق، إذ ما فائدة أن نعرف أن فلانًا قد أثر فى علان فى أربعة وعشرين موضعًا مختلفًا؟ وسميت هذا مجرد «معرفة» scienti وليس «حكمة» sapientia، أى أننى ميّزت بين الظاهرة الطبيعية المادية البسيطة (المعرفة) والظاهرة الإنسانية المركبة (الحكمة)، وميزت بين الحقائق والحقيقة والحق. كما بيّنت خطورة النموذج المعلوماتى التراكمى الذى يساوى بين المعلومات والمعرفة، ثم أضفت قائلاً: «فلنبداً إذن من حيث يجب أن نبدأ، من عالم رؤية الكون والجذور الثقافية والتاريخية والدينية والاقتصادية للكاتبين».

* الجزء الثانى (الأطروحة المضادة)

أدركت من خلال حوار استمر عدة سنوات مع الصديق كافين رايل حول تجربتي فى الولايات المتحدة أهمية «البُعد التاريخى»، فاستخدمته فى رسالتى. لقد قارنت بين وردزورث وويتمان مستخدماً «مقولة التاريخ» فى

مقابل «مقولة الطبيعة»، أى أننى استخدمت نموذجًا تحليليًا قوامه التعارض بين الإنسان المركب صاحب الوجدان التاريخى الذى يستطيع تجاوز الطبيعة وبين الإنسان البسيط الطبيعى المعادى للتاريخ والذى يُرد إلى ما هو دونه، أى إلى عالم الطبيعة/ المادة.

لقد أشرت إلى أن كلاً من وردزورث وويتمان قد تم تصنيفهما على أنها شاعران «رومانتيكيان»، واعتُبرت هذه حقيقة صلبة لا يمكن الاختلاف بشأنها، لكننى وجدت أن نقط الاختلاف بينهما جوهرية وقوية الدلالة. فالشاعر الإنجليزي (وردزورث) ينتمى إلى الكنيسة الإنجليكانية ذات التوجه الكاثوليكي رغم أنها ليست كاثوليكية (تتميز بتأكيداتها على الطقوس وعلى فكرة الكنيسة كمؤسسة وسيطة بين الإنسان والإله)، بينما ينتمى الأمريكى (ويتمان) إلى جماعة الكويكرز (جماعة بروتستانتية متطرفة ترفض الطقوس وترفض أى وساطة بين الإنسان والخالق، وتؤكد على ما يُسمى «الصوت الداخلى»، الذى يسمعه الإنسان داخله ويتلقى منه الإلهام والمشورة، مما يسقط أى فائدة للطقوس والشعائر).

كذلك كان وردزورث يعيش فى مجتمع (إنجلترا) مر بكل المراحل التاريخية لما قبل الرأسمالية، تتداخل فيه الحداثة بالتقاليد، والعناصر المادية بالعناصر الروحية. أما ويتمان، فكان يعيش فى مجتمع استيطانى (أمريكا) ليس له تراث تاريخى، مجتمع يتجه إيقاعه العام نحو الآن وهنا، والمباشر والمحسوس والعملى، وهذه فى تصورى أحاسيس معادية للتاريخ، إنه مجتمع لا يعرف إلا الشكل الرأسمالى فى التنظيم الاقتصادى وفى الرؤية للكون.

لكل هذا، فإن موقف الشاعرين من الكون مختلف تمامًا على الرغم من بعض التشابه فى التفاصيل. فوردزورث يرى أن العودة للطبيعة والامتزاج بها

(الحلولية المادية) هي نزعة معادية للتاريخ والدين والإنسان. ومن ثم، فإن العودة للطبيعة التي تظهر في بعض أشعاره هي مجرد «صور مجازية» أو لحظات مؤقتة لا تدوم. ومن هنا فإن «شاعر الطبيعة»، كما كان يُسمَّى، لا يفقد ذاته بالذوبان في الطبيعة، فهو يستند إلى تراث تاريخي قوى وإيمان عميق بالإنسان وبالإله الذى لا يتجلى فى الصوت الداخلى وحسب وإنما من خلال طقوس اجتماعية. وبالتالي فردزورث فى واقع الأمر هو «شاعر الإنسان» فى لحظات حزنه وفرحه وليس شاعر الطبيعة (وهذا وصف وردزورث لنفسه).

ثم قارنت هذا بشعر ويتمان، الذى وصفته بأنه شاعر حلولى مادى يعادل بين الروح والمادة ويقرن بينهما، وهو يتغنى بالمادة والجنس والكهرباء والجاذبية الأرضية التى يرى أنها تشبه الجاذبية الجنسية. فالإنسان ليس إلا جزء لا يتجزأ من الطبيعة وعليه أن يتكيف معها ويدعن لها. وعداء ويتمان للإنسان المركب التاريخى يترجم نفسه فى محاولته الوصول إلى نهاية التاريخ وإلى اليوتوبيا التكنولوجية، لذلك فإن ويتمان يرى أن أمريكا هي الفردوس الأرضى، فهى دولة العلم والتكنولوجيا التى ستهدم التاريخ وتعلن نهايته (وذلك قبل أن يتحدث فوكوياما فى نهاية الثمانينيات عن انتصار الليبرالية التى تؤدى إلى نهاية التاريخ). بل إن التاريخ يظهر فى أشعار ويتمان وفى كتاباته النقدية كجثة هامدة وعبء ثقيل يحاول الإنسان قدر طاقته أن يتخلص منه، حتى ينطلق من نقطة الصفر (ونقطة الصفر هذه تشبه أمريكا التى رفضت التاريخ الأوروبى لتبدأ من «جديد» بلا تراث تاريخى ولا أعباء أخلاقية).

*** أن تكون خليفة من الله فى الأرض**

أم تهيم مع الحيوانات فى البرية... اختر

وشعر ويتمان مفعم «بالرغبة فى العودة الدائمة إلى الطبيعة»، ليس مثل وردزورث الذى يعود إلى الطبيعة مجازاً وحسب وللحظات وحسب.

فالكثير من قصائد ويتمان تبدأ بالابتعاد التدريجي عن كل ما هو إنساني مع الاقتراب المتزايد من الطبيعة إلى أن يلتحم بها تمامًا ليصل إلى لحظة ذوبان الذات الإنسانية في الطبيعة المادية، وهي عادةً ما تكون لحظة قذف جنسية (مع محبوب من نفس جنسه) يُعلن فيها تحرره من عبء التاريخ ومن التدافع ومن الهوية الإنسانية، فهي لحظة نهاية التاريخ وتَحَقُّق الفردوس الأرضي.

وقد خلصت إلى أن وولت ويتمان، الذي يسمونه في الولايات المتحدة «شاعر الديمقراطية الأمريكية»، هو في واقع الأمر «شاعر الشمولية وموت التاريخ والإنسان».

وبالتدرج اكتشفت علاقة نهاية التاريخ بغياب الحس الخُلُقِي، وأدركت أن إلغاء التاريخ في أمريكا (الدولة الاستيطانية) يعنى في واقع الأمر شرعية إبادة العنصر السكاني الأصلي (التاريخي)، حتى يبدأ المستوطنون واقعهم من نقطة الصفر. فالعداء للتاريخ هو في واقع الأمر عداء للإنسان.

ويمكن تلخيص رؤيتي لجوانب الاختلاف بين الشاعرين في اقتباسين وضعتهما في مقدمة الرسالة، أحدهما من القرآن: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾ [البقرة: 30]، وأرى أن هذه الآية تعكس رؤية وردزورث. والاقتباس الآخر من ويتمان يعلن فيه (إنه سيذهب ويعيش مع الحيوانات فهي مكتفية بذاتها)، وأضيف الآن أن القرآن يجسد هذه الرؤية في سورة التين ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَفَلَيْنِ﴾ [الآيات 4 - 5].

* الجزء الثالث (الأطروحة المركبة)

في هذا الجزء من الرسالة اقترحت أن نعيد النظر في مسألة التأثير والتأثر، وبيّنت وجود أثر مادي وملموس بين الشاعرين ولكنه سطحي؛ لأن بنية

فكر وردزورث ورؤيته (خريطته الإدراكية) لم تؤثر البتة في ويتمان، أى أن الاختلاف (الفكرى والثقافى) بينهما أهم كثيراً من التشابه (المباشر المادى).

* الجزء الرابع والآخر (الممارسة)

كتبت هذا الجزء بشكل فكاهى ساخر إلى حدّ ما كما يتضح من عنوانه الإضافى: «عشرون طريقة يمكن للجنس البشرى بأسره أن يستفيد بها من رسالتى للدكتوراه»، وختمته بنفس العبارة التى خُتم بها البيان الشيوعى ولكن بعد تعديلها: «يا عمال العالم - لكل هذا - اتحدوا».

الثمرة التاسعة والتسعون...

مناقشة الرسالة

انتهت الرسالة وقدمتها لأستاذى الذى أرسل بها إلى المناقشين الثلاثة، وقابلنى بيولى وأخبرنى بأن رسالتى للدكتوراه هى أحسن رسالة قرأها فى حياته الأكاديمية، بينما قابل البروفسير فيليبس الرسالة بفتور شديد وقال باقتضاب «عمل عظيم»، أما البروفسير جورج فقد أعاد رسالتى بعد ساعتين من تسلمه لها وزعم أنه فعل ذلك بسبب وجود خطأ فى علامات الترقيم فى الصفحة الثانية! فصُعق أستاذى وأخبرنى بأن ما قلته عن حدود الديمقراطية - على ما يبدو - أمر صحيح.

وبعد أن رفض البروفسير جورج الرسالة، اضطرت لقضاء ستة شهور كاملة لإعادة كتابتها وتنقيحها، كما استبعدت الكثير من عبارات الذم والقدح فى ويتمان وفى الحضارة الأمريكية، وإن كنت قد زدت من عيار الهجوم الفعلى ووازنتم هذا ببرود أسلوبى وحياده.

ثم تقدمت بالنسخة الجديدة، وحُدّد موعد المناقشة، وفوجئت بالأساتذة قد جاءوا ومعهم أطنان من الورق وأسئلة مكتوبة، وهذا أمر غير مألوف بعد

قبول الرسالة للمناقشة. وصُعبق أستاذى للمرة الثانية (كان أستاذى يُصعبق دائماً حينما يرى الشر، كان خيرًا وقديسًا لدرجة تثير الفرح والأسى فى نفس الوقت)، وقررت أن أستخدم مدفعيتى الثقيلة وبكل ضراوة، وقرر أستاذى أن يأخذ صفى دون أى تحفظ، وهذا أيضًا أمر غير مألوف، فوظيفة المشرف فى مثل هذه الحالات هى إدارة الحوار وحسب.

* المبارزة

بدأت المناقشة، فلام على الممتحنون غياب بعض كبار النقاد من قائمة المراجع، فلخصت لهم أطروحات هؤلاء النقاد ووصفتها بأنها أطروحات تافهة ومن ثم فهم لا يستحقون أن يُذكروا فى رسالتى للدكتوراه؛ لأننى لن أذكر كل من هب ودب من أيام آدم إلى أيام جونسون ونيكسون.

وعرض على أحد الأساتذة بعض مقطوعات من شعر وردزورث ذات طابع حلولى مُغرق فى الحلولية، فقلت على الفور: أننى طبعًا أعرف هذه المقطوعات الحلولية المتطرفة، وأعرف أنها وُجدت ضمن أوراقه، هذه حقيقة مادية لا مرء فيها، ولكن الأهم من هذا كله أن وردزورث نفسه قام بحذفها من قصائده، وحذفها من دواوين شعره أعمق دلالة من وجودها فى درج مكتبه!.

كما أخبرت أساتذتى بأن رسالتى للدكتوراه هى ظاهريًا عن وردزورث وويتمان، بينما هى فى واقع الأمر عن الصراع العربى الإسرائيلى، الصراع بين مجتمع تاريخى (المجتمع العربى فى فلسطين) ومجتمع معاد للتاريخ (التجمّع الاستيطانى الصهيونى)، وأن العودة للطبيعة هى العودة إلى صهيون، وأن العداء للتاريخ هو جوهر الصهيونية (وقد استخدمت هذا النموذج التحليل الذى استخدمته فى الدكتوراه فى دراساتى للصهيونية فيما بعد).

* النتيجة

بعد انتهاء النقاش، خرجت من الغرفة حتى تتداول اللجنة. وحينما عدت، أخبروني بأنهم وافقوا على منحى درجة الدكتوراه، ثم أداروا ظهورهم لى ولم يصافحونى كما هو مُتَّبِع فى مثل هذه المناسبات، فُصِّع أستاذى للمرة الخمسين. ثم أخبرنى استاذى بأنهم قالوا له فى أثناء المداولة: «إن حياتهم ستكون مختلفة بعد رسالة المسيرى»، وهذا أقصى ما يمكن أن تطمح إليه أى رسالة. ثم تساءل: «لماذا إذن عاملوك بهذه الطريقة الجافة؟» فشرحت له للمرة المائة نظرية الخطوط الحمراء التى لا يمكن للمرء عبورها، وأن هذا ما فعلته حين قدمت رؤيتى لويتان والحضارة الغربية الحديثة، وأخبرته بأنه لولا أنه هو المشرف على رسالتى لما حصلت على الدكتوراه من أى جامعة أمريكية. وكان استاذى يتأكد بنفسه من مسألة الخطوط الحمراء هذه كلما أرسل برسالتى لتُنشر؛ إذ كان طلبه يُقابل بالرفض.

* موقف موضوعى حقيقى

ومع هذا يجب أن أعترف بمقدرة המתحدين على تجاوز غيظهم منى وحنقهم علىّ، وهذا أمر أساسى فى العملية التربوية. وهذا موقف لا يمكن أن يحدث - للأسف - فى مصر، فلا بد من أن يكون الأساتذة راضين تمام الرضا عن الطالب وإلا فنصيبه هو الضياع والخراب والدمار والهلاك، وربما ما هو أكثر من ذلك.

الثمرة المائة...

الخطوط الحمراء وأوهام الحريات الأمريكية المطلقة

لم تقتصر مسألة الخطوط الحمراء التى لا يُسمح بتجاوزها فى الولايات المتحدة على ما ذكرت أثناء إعدادى ثم مناقشتى لرسالة الدكتوراه، بل لقد عاصرت الكثير من هذه المواقف أثناء وجودى هناك. أذكر من ذلك موقفاً

حدث مع أحد الأساتذة الأمريكيين؛ كان أستاذًا يساريًا في جامعة رتجرز، وكان يتخذ موقفًا معاديًا لحرب فيتنام، ولم يكن من الممكن أن تطرده الجامعة بسبب أفكاره، فقام مجلس الولاية بتقليص ميزانية الجامعة، ثم سُربت رسالة إلى أعضاء هيئة التدريس مفادها أن تقليص الميزانية سببه هو وجود هذا الأستاذ اليسارى في الجامعة، فبدأ الأساتذة أنفسهم بالضغط عليه حتى يترك الجامعة، فرفض في بداية الأمر، ولكن بعد قليل أصبح الأمر لا يمكن تحمله، فاضطر الأستاذ للاستقالة.

ثانيًا: كتاب الفردوس الأرضي

﴿...وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ فَكُذِّبَ الْكَلْبُ
إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ...﴾ [الأعراف: 176].

الثمرة الأولى بعد المائة...

إرهاصات الكتاب

حين وصلت إلى الولايات المتحدة بلد الحرية والديمقراطية عام 1963، وجدت نفسى كارها لما حولى؛ إذ أحسست أننى وصلت إلى «سوق كبير»، وبرغم حبى لكثير من الأمريكيين (فهم شعب طيب نشيط متفتح الذهن) فإننى وجدت أن النظام المهيمن يجهض إنسانيتهم، ويخاطب أخط ما فى الإنسان.

وحينما عدت إلى مصر وبدأت أفكارى تتحول عن الماركسية، قلت لنفسى ربما كان موقفى المتحيز ضد الولايات المتحدة متأثرًا برؤيتى الماركسية، لذا حين عدت مرة أخرى عام 1975، قررت أن أحاول النظر للمجتمع الأمريكى بعقل أكثر تفتحًا، ولكن هيهات، فقد ازدادت اقتناعًا بخطورة النموذج المادى المهيمن على الولايات المتحدة، لا على الأمريكيين

كبشر وحسب، وإنما كذلك على الجنس البشرى بأسره. وقد ازدادت قناعتى على مر الأيام.

بطبيعة الحال لم أكتف بالتأمل، وقررت أن أترجم تأملاتى للظاهرة الأمريكية إلى دراسة أنقل من خلالها أفكارى للقارئ العربى، وأعرض عليه ثمرة تجربتى التى نُشرت بعد ذلك فى كتابى «الفردوس الأرضى: دراسات وانطباعات عن الحضارة الأمريكية الحديثة» (1979)، وتنطلق الدراسة من نفس المقولة الأساسية فى فكرى، أى الفصل بين الإنسانى والطبيعى. وصفت فى هذه الدراسة النزعة الاستهلاكية المهيمنة على الإنسان الأمريكى والإنسان الحديث بصفة عامة، وكيف أنها تعنى الارتباط «بالآن وهنا»، وأعلنت أن ذلك يلغى الماضى والمستقبل، أى يلغى التاريخ، لذلك فالإنسان الأمريكى يحاول أن يؤسس فردوساً أرضياً يمكنه التحكم فيه.

ويعالج الكتاب هذا المفهوم من خلال ثلاثة موضوعات رئيسية: الفردوس الأرضى العلمى ونهاية التاريخ.

العلاقة الوجدانية والمعرفية بين الولايات المتحدة وإسرائيل.
مشكلة المرأة والضغط التى تتعرض لها فى المجتمع الحديث.

الثمرة الثانية بعد المائة...

الفردوس الأرضى العلمى ونهاية التاريخ

* الإنسان الطبيعى والإنسان التاريخى:

أبناء السفاح وأبناء النكاح

تحدثت فى مقدمة الكتاب عن الإنسان الطبيعى والإنسان التاريخى، ووصفت الإنسان التاريخى (صاحب النزعة الربانية) بأنه إنسان يتسم

بالثنائية، فهو يعيش في التاريخ (الدنيا) ويبحث عن المطلق خارج التاريخ، فهو يفصل بين المطلق والنسبي، ويحلم بالفردوس خارج عالم المادة وخارج الزمان في الحياة الأخرى.

ثم بينت أن الإنسان الطبيعي (أسير النزعة الجينية) إنسان يرفض الحدود التاريخية والأخلاقية بل والإنسانية. وهو في بداية الأمر إنسان روسو الحر الفرح الآمن، وروسو هو الفيلسوف الفرنسي الذي كان يتصور أن حالة الطبيعة هي حالة البراءة والفردوس والحرية الكاملة، أما حالة الحضارة فهي حالة القيود والعبودية، وله عبارة شهيرة: «وُلد الإنسان حرًا وهو الآن مكبل بالأغلال في كل مكان»، لذلك فإنسان روسو الحر هو الذي لا تحده حدود أو قيود. ثم يتحول إلى إنسان دارون المتجهم الذي يلتهم الضعاف من البشر أو تلتهم الذئاب من البشر الطبيعيين الماديين. ثم تحول أخيرًا إلى كلب بافلوف المسكين، القابع في المعمل، لا يتحرك إلا بعد تلقى إشارات برانية، فهو ظاهر مادی محض، ليس له باطن إنساني.

ويسعى القائمون على تشكيل الإنسان الطبيعي لتحقيق «الفردوس الآن وهنا» إلى إشباع كل رغبات البشر، متبعين آخر الأساليب العلمية. إن هذه الرؤية الميكانيكية البسيطة تفترض أن الإنسان كَمُّ محض لا يختلف عن الكائنات الطبيعية الأخرى، أي أن الإنسان الحديث قد تم تدجينه وترشيده تمامًا.

* اليوتوبيا التكنولوجية.

لم يعد هذا «التصور الفردوسي الأرضي العلمي» قضية فلسفية تشغل فلاسفة الرأسمالية والتكنولوجيا فحسب، لكنه أصبح جزءًا من تصورات المواطنين العاديين في الدول الصناعية في الغرب. لقد أصبح التقدم العلمي

هدفًا في حد ذاته (اليوتوبيا التكنولوجية) بغض النظر عن العائد المعرفي أو الإنسانى له، وبغض النظر عن مقدار البؤس أو السعادة التى يجلبها للبشر. لقد أصبحت مضاعفة الإنتاج أمرًا مرغوبًا فيه دون أى حُساب لحاجات الإنسان الحقيقية (كما ظهرت وترسخت عبر التاريخ) ودون أى احترام للبيئة الطبيعية. أى أن هدف الإنتاج لم يعد إشباع الرغبات الإنسانية، وإنما أصبح الإنتاج هو ذاته الهدف والغاية النهائية، وهذا هو قمة الاغتراب. وتدور عجلة المصانع فى سرعة خرافية لتنتج سلعا وأشياء لا يريد بها الإنسان، لكنها فى دورانها تلوث البيئة بالأحماض والعدام الصناعى فتدمر الإنسان من الخارج، ثم تغرقه فى السلع والتفاصيل لتدمره من الداخل.

*** تساقطت الحواجز بين الأيدولوجيات،**

ولم يبق إلا الإنسان الطبيعى أسير النزعة الجينية

قد يُقدَّر لهذه الحضارة الأمريكية، المعادية للحضارة والتاريخ، لها السيطرة على المجتمعات الرأسمالية الأخرى ذات التاريخ العريق والتراث القومى والدينى، بل إننى أعتقد أن المجتمعات الاشتراكية مهددة بهذا الغزو الحضارى الأمريكى أكثر من غيرها؛ لأنها مجتمعات قطعت صلتها بتراثها القومى والدينى وخلقت فراغًا حضاريًا لا يمكن أن تزدهر فيه سوى القيم المادية الأمريكية، خاصةً وأن هذه المجتمعات الاشتراكية لا تزال تُقوِّم نجاحاتها وإنجازاتها بالمعايير المادية الميكانيكية غير الإنسانية، مثل زيادة حجم الإنتاج والهبوط على القمر.

لقد أكتشفت أن الإنسان الطبيعى الذى يدور فى إطار مادية يتلاقى عنده كلا النظامين الرأسمالى والاشتراكى، وأن المرجعية الطبيعية المادية هى المرجعية النهائية لكليهما (نظرية التلاقى بين النظامين convergence)، والتلاقى هو توحد النماذج كلها بحيث تتبع نمطًا واحدًا وقانونًا عامًا

واحدًا، هو قانون التطور والتقدم، بحيث يُصبح العالم مُكوّنًا من وحدات متجانسة، ما يحدث في إحداها يحدث في الأخرى. فما حدث في العالم هو سقوط الماركسية Marxism وظهور عبادة السوق Marketism. وعبادة السوق هذه وهيمنتها على العالم بأسره، شماله وجنوبه وشرقه وغربه هي في واقع الأمر نقطة التلاقى التى تَحَدَّث عنها علم الاجتماع الغربى.

انطلاقًا من هذا التصور، طالب العالم السوفيتى زخاروف Zakharov بتخطى الخلافات الأيديولوجية بين الاشتراكية والرأسمالية وتوحيد جهود علماء العالم لإسعاد البشر، كما لو كان علماء العالم عندهم الصيغة السحرية الفردوسية القادرة على شفاء كل الأمراض، متناسيًا أن العلم يتعامل مع عالم الطبيعة وحسب، وحينما يتعامل العلم مع الإنسان فإنه يتعامل معه باعتباره كائنًا طبيعيًا، أما الإنسان ككائن تاريخى مركب فيقع في مجال الفلسفة والأيديولوجيا والدين.

* أوهام الفلسفة البراجماتية

وقد هاجمت في كتاب الفردوس الأرضى الفلسفة البراجماتية، وهى الفلسفة الأمريكية التى جعلت «النجاح» هو الحقيقة الوحيدة المقبولة، وهو المعيار الوحيد للحكم على كل الأشياء.

إن البراجماتية ترى أن كل شىء نسبى متغير، و«الشىء الحقيقى» ليس هو ما يتفق والقيم الأخلاقية والدينية كما تقول الأديان السماوية، وإنما الحقيقى هو ما ينجح. إن أى شىء ينجح فى أن يحرز مكانة خاصة به وفى أن يفرض نفسه على الواقع تصبح مكانته قائمة وثابتة (وبذلك ألغت التاريخ والتراث)، فالطبيعة تلد كل شىء ولا تتحيز لأى شىء، ولا يوجد أى شىء أحق من أى شىء آخر، إنها بحق فلسفة الطبيعة/ المادة.

إن البراجماتية هى فى الواقع فلسفة العنف ضد الإنسان. يرى الفيلسوف

البراجماتي وليام جيمس «أن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يفترس أبناء نوعه»، إذ إن الإنسان قد تكيف وإلى الأبد مع حالة الحرب ولا يمكن لسنوات السلام مهما طال أن تمحو من الوجدان الإنسانى الرغبة فى الحرب. لقد ولدنا كلنا لنحارب، والمجتمع سيصاب حتماً بالركود والعفن دون حرب». إن الداروينيين لا يُضفون على الإنسان أى خصوصية، وإنما يعتبرونه كائنًا طبيعيًا تنطبق عليه كل القوانين الطبيعية، شأنه فى هذا شأن أى كائن آخر دون أى تمييز خُلقي أو تاريخي أو جمالي، إنه عالم نيتشوى دارويني يحكمه قانون الغابة؛ «البقاء للأصلح».

* ليس غزوًا ثقافيًا بل غزوًا استهلاكيًا

لقد تغير نموذجى الإدراكى تجاه ما يحدث فى الولايات المتحدة، وبدلاً من الحديث عن الحضارة الأمريكية الحديثة، أشير الآن إلى ما أسميه «الحضارة الاستهلاكية العالمية» التى تتسم منتجاتها الحضارية (الهامبورجر - البلوجينز - الديسكو... إلخ) بأنها بلا طعم ولا لون، ولا تنتمى لأى تشكيل حضارى، وإنما هى حضارة معادية للحضارة، حضارة مضادة anti-culture تحاول تقويض كل التشكيلات الحضارية الأخرى بما فى ذلك الحضارة الأمريكية نفسها. إن «الغزو الثقافى» ليس غزو الثقافة الغربية لنا (فهم لا يُصدرون لنا شكسير وموزارت وبوشكين) وإنما غزو هذه الحضارة الاستهلاكية العالمية لكل الحضارات وتقويضها لظاهرة الإنسان.

الثمرة الثالثة بعد المائة...

العلاقة الوجدانية والمعرفية بين الولايات المتحدة وإسرائيل

إذا تأمل المرء كلاً من الولايات المتحدة والدولة الصهيونية فإنه يلاحظ التشابه والتطابق بينهما، ولعل ذلك يرجع إلى أن كليهما يرفض التاريخ بعناد وإصرار، أو على الأقل يحوله إلى أسطورة متناهية فى البساطة.

* جذور الوجدانين الأمريكي والصهيوني

لقد بدأ التاريخ الأمريكي حينما استقل البيوريتانيون سفنهم وهاجروا من أوروبا إلى العالم الجديد أو أرض الميعاد هرباً من المشكلات التي أثارها «التاريخ المسيحي الأوروبي». فالبيوريتانيون أو المتطهرون هم لفيف من البروتستانت المتطرفين الذين وجدوا أن من العسير عليهم البقاء داخل الكنيسة الإنجليكانية لأنها لم تتعد بالقدر الكافي عن النمط الكاثوليكي في العبادة بما يتميز به من طقوس وتماثيل وزخارف، فطالبوا «بتطهير» العبادة المسيحية من كل هذه العناصر الدخيلة التي لم يأت لها ذكر في العهد القديم أو الجديد. إن «العودة إلى البساطة الأولى» كانت الهدف الأسمى للمتطهرين الذي حاولوا تشييد مدينتهم الفاضلة (أو صهيون الجديدة كما كانوا يسمونها) حسب المثل والقواعد التي وضعها وطبقها المسيحيون الأول، لذا يمكننا القول بأن الوجدان البيوريتاني يرفض التاريخ المسيحي كله، بل يرفض أى رؤية تاريخية على الإطلاق.

والرفض البيوريتاني الأمريكي للتاريخ الأوروبي يقابله الرفض الصهيوني الإسرائيلي لتاريخ اليهود المشتتين في دول العالم (الدياسبورا = الشتات). لذلك فهم يطالبون بالعودة «للبساطة الأولى» أيام كان اليهود يعيشون ككيان قومي مستقل فريد لم تدخل عليه الشوائب (التاريخية) في المجتمعات غير اليهودية. ويرى الصهاينة أن ذلك يؤدي إلى النهاية الإسرائيلية السعيدة كما تبين نبوءات العهد القديم، لذلك نجد في الفردوس اليهودي الجديد (إسرائيل) أن كل المواطنين يحملون أسماء عبرانية لها رنين خاص.

إن أسطورة العالم الجديد الذى يتحلى بالبساطة والبراءة والذى هو أقرب إلى الفردوس الأرضى تسيطر على الوجدانين الأمريكى والصهيونى. لم يختلف فهم البيوريتان لمدينتهم الفاضلة كثيراً عن فهم الصهاينة لإسرائيل،

فهم كانوا مقتنعين تمام الاقتناع بأنهم إنما هاجروا من أوروبا إلى العالم الجديد لينشئوا «مدينة على التل» تنظر إليها كل الأمم وتحاكى أفعالها، وبذا يعم الخير ويأتى الخلاص. ومما له دلالة وطرافته أن مؤسسى الجمهورية الأمريكية قد فكروا بعد إعلان الاستقلال فى جعل اللغة العبرية لغة الدولة الرسمية بحُساب أن الجمهورية الوليدة هى صهيون الجديدة.

وكما هو الحال مع الإسرائيليين، نجد أن البيوريتانيين يرون فى كل شىء علامة مرسله من الله يُستشهد بها على شىء ما، فاستخدموا هذه «العلامات الربانية» لتسويغ كل أعمالهم العدوانية لإبادة الهنود الحمر واحتلال لأراضى الغير. وقد استمر هذا التزاوج بين الأحلام الدينية والأحلام القومية التوسعية حتى القرن التاسع عشر، ويمكن القول بأن هذا الخطاب الدينى لم يُخف تمامًا، ولعل ظهور ما يسمّى بالأصولية المسيحية (التي عادت بكامل شراستها على يدى بوش) هو أكبر دليل على ذلك.

* عقلية الكابوى: من شابه أباه فما ظلم

إن «عقلية الريادة» تسيطر على كل من الصهاينة والأمريكيين. فالبيوريتانيون «اكتشفوا»! أمريكا ثم انتشروا فيها عن طريق إنشاء مستعمرات ذات طابع زراعى عسكرى. والمستوطنون الصهاينة هم الآخرون «اكتشفوا»! فلسطين واحتلوها بنفس الطريقة. وعقلية الرائد عقلية عملية تفضل الفعل على الفكر، والنتائج العملية على الاعتبارات الخُلقية، إنها عقلية الكابوى الذى ينتصر لأنه يطلق مسدسه فى الوقت المناسب وقبل خصمه بجزء من الثانية، ثم يمسح فوهة مسدسه وهو يُقبّل عشيقته حتى لا يضيع وقته فيما لا يفيد. وقمة الإنجاز هو دائماً ذبح الخصم: «أنا أذبح (خصوصى) لا كروسى يهودى أو فرنسى يهودى بل كيهودى يهودى، هذا هو منأى» (كما يقول أحد أبطال القصص الإسرائيلية).

ولعل نقطة التشابه الأساسية بين الوجدانين الأمريكي والصهيوني الإسرائيلي هو «العنف العنصرى»، بما فيه من تناقضات: عالم جديد برىء بسيط لا يمكن أن يُشَيّد إلا عن طريق العنف والإبادة (إبادة الهنود الحمر والفلسطينيين)، الفردوس والجحيم في آنٍ واحد!.

* فابريكة الإنسان الجديد في نيويورك وحيفا

كان على المهاجرين إلى المجتمعين الأمريكي والإسرائيلي أن يطرحوا عن أنفسهم هُوياتهم القديمة ليكتسبوا هُوية قومية جديدة بمجرد وصولهم إلى نيويورك أو حيفا. واكتساب الهُوية الجديدة هو مشكلة المشكلات بالنسبة لكل المجتمعات الاستيطانية الرافضة للتاريخ وللتراث، لذلك ينبغي أن «تفكر» هذه المجتمعات «تراثاً جديداً» يدور حول أسطورة بسيطة يؤمن بها «الإنسان الجديد» ويجمع حولها المهاجرون من كل صوب. فاستحدثت أمريكا شيئاً يجمع هذا الشتات، فكانت «أسطورة آدم الجديد الديمقراطي» الذى يأتى إلى الأرض أو الجنة العذراء ليقم فيها ويستلهم كل ما فى التراث العالمى من إيجابيات ويفتح على كل الحضارات. أما الصهاينة فقد (فبركوا) «أسطورة اليهودى الخالص» المنفتح على الحضارة اليهودية الخالصة والذى يهاجر إلى أرض الميعاد اليهودية ليحارب فى جيش يهودى ويزرع فى حقل يهودى ويقرأ فى كتاب يهودى (وربما يحب على الطريقة اليهودية، ويقتل بالطريقة نفسها!).

إن بوتقة الصَّهْر التى تمزج الأخطا المتباعدة من البشر فى المجتمعات الاستيطانية وهُم كبير، إن الكل الأمريكى المتجانس لا وجود له. فهذا الإنسان الجديد البرىء من الشر وأيضاً من التاريخ والمعرفة لم يُقدَّر له أن يخرج من البوتقة مبتسماً كأنه فى إعلان تليفزيونى، بل خرج بدلاً منه الصهيونى مزدوج الولاء، والأفروأمريكى حامل لواء قارته السوداء والمدفع

الرشاش، والأيرلندى الكاثوليكي الذى يرفع علم بلاده الأيرلندية ويحاول التفوّه ببضعة حروف من لغة بلاده الأصلية وكأن كل حرف يحمل رسالة ذات مغزى عميق.

وفي صهيون الجديدة الإسرائيلية ما زال عدم التجانس هو أخشى ما يخشاه حكام إسرائيل. وهى ظاهرة تعبّر عن نفسها فيما يسمى بالأمّتين الإسرائيليتين: إسرائيل اليهود الشرقيين (سفارديون) وإسرائيل اليهود الغربيين (أشكيناى). وداخل كل «إسرائيل» توجد جماعات قومية صغيرة لا تزال مزدوجة الولاء وتشعر بالحنين للوطن الأم، مما يدل على أنهم لم يكتسبوا الهوية الإسرائيلية اليهودية الخالصة.

* ولكن هناك فرق

ومع سيطرة الفلسفة البراجماتية (فلسفة الإنجاز) على الدولتين، يظل هناك فرق جوهري بين البراجماتية الأمريكية والبراجماتية الصهيونية. فالبراجماتية الأمريكية هى براجماتية غير مُثَقَّلَة بأى أساطير، ولذا فهى براجماتية متسقة مع نفسها؛ تقف ضد التاريخ ولا تاريخ لها. أما البراجماتية الصهيونية فهى براجماتية منكرة للتاريخ (حق الفلسطينيين فى أرضهم)، بالرغم من أنها مثقلة بالأساطير والتواريخ المقدسة التى يدّعون من خلالها أحقيتهم التاريخية فى فلسطين!.

* درس إعلامى

مما مضى نخلص إلى درس إعلامى هام، إذ ينبغى أن نضع فى حُسباننا أنه من اليسير على الشعب الأمريكى فهم العقلية الإسرائيلية والتعاطف مع الشعب الإسرائيلى وقيمه اللاأخلاقية من عنصرية وعنفاً، نظراً للتشابه بين وجدان الشعيين. وهذه النتيجة ليست دعوة لليأس، وإنما هى مجرد تعرّف

على عنصر موجود بالفعل، إن لم نعترف به هَزَمْنَا وأفشل خِططنا، وإن اعترفنا به ساعدنا على معرفة حدود ومدى أى حملة إعلامية نقوم بها. إن الشعب الأمريكى وقادته الذين تسيطر عليهم عقلية الرائد والكاوبوى لا يفهمون سوى منطق القوة، ولا يحسون إلا بالنتائج العملية المباشرة، لذلك فالإعلام الذى لا تسنده قوة أو وضع قائم بالفعل ما هو إلا دعوة للأخلاق الحميدة لا ينصت لها إلا ذوو النوايا الطيبة، وحتى هؤلاء سينسونها وينسوننا بعد دقائق.

الثمرة الرابعة بعد المائة...

مشكلة المرأة والضغط التى تتعرض لها فى المجتمع الحديث

* صدق أو لا تصدق: التمرکز حول الأنثى

من الموضوعات الأساسية التى تناولتها فى كتاب «الفردوس الأرضى» مشكلة المرأة فى المجتمع الحديث. حينما وصلنا إلى الولايات المتحدة عام 1963، كانت الأمور بالنسبة للمرأة هادئة بل خائفة، وحينما عدت إليها عام 1971 كانت الأمور قد تغيرت بشكل جذرى، ولم تعد الإناث يطالبن بحقوقهن وبالمساواة فحسب بل كانت هناك ثورة تجاوزت الإنسانية المشتركة للرجل والمرأة. ومن هنا أُمِيز بين حركة تحرير المرأة women's liberation movement وهى حركة مشروعة، وبين حركات ال feminism التى أترجمها بتعبير «التمرکز حول الأنثى».

أنظر إلى المنشور الثورى الصادر عن جماعة «سكُم» Scum، والكلمة تعنى «نفاية» ولكنها اختصار لعبارة إنجليزية ترجمتها الحرفية هى «جماعة التخلص من الرجال»؛ يبدأ المنشور بتأكيد أن الحياة فى هذا المجتمع أصبحت شيئاً «يبيث على الملل الشديد، لذلك ينبغى على السيدات المسئولات

الباحثات عن المتعة أن يقلبن نظام الحكم ويلغين النظام النقدى ويدخلن نظام الصناعة الآلية ويقضين على جنس الذكور». ثم يستطرد المنشور العتيد قائلاً: «لقد أصبح من الممكن الآن للسيدات أن يلدن دون أى مساعدة من الذكور وأن يلدن إناثاً فقط، وينبغى البدء فى هذا على الفور». ويدعى المنشور أن جينوم الذكر إن هو إلا جينوم أنثى غير كاملة، فهو يحتوى على مجموعة غير كاملة من الكروموسومات؛ شىء أجهض على المستوى الجينى ولكنه يسير على قدمين. ولأنه أنثى غير كاملة. يقضى الذكر حياته بحثاً عن كائن يحتوى على مجموعة كاملة من الكروموسومات (الأنثى) ليصادقها ويعيش معها ويمتزج بها، وبعد ذلك يدعى أن كل الصفات الأنثوية المتميزة هى صفاته؛ مثل القوة والاستقلال والديناميكية والقدرة على اتخاذ القرارات والموضوعية وتأكيد الذات والشجاعة والتكامل والحيوية والجدة وعمق الشخصية... إلخ. كما إنه يُسقط كل سمات ذكوره على المرأة مثل الغرور والسطحية والتفاهة والضعف... إلخ.

والصراع - حسبما جاء فى المنشور - ليس بين الإناث والذكور وحسب، ولكن بين «السكم»، وهن الإناث المسيطرات الآمات الوثائق بالنفس، العنيفات المستقلات المتكبرات الباحثات عن المتعة، اللائى يعتقدن أن عندهن المقدرة على حكم العالم، نقول إنه صراع بين «السكم» وبين الإناث اللطيفات السليبات المؤدبات الخاضعات، والخائفات اللائى لا يثقن البتة بأنفسهن، بنات آبائهن اللائى لا يمكنهن مواجهة المجهول، واللائى لا يشعرن بالاطمئنان إلا و«بابا» الكبير يقف إلى جوارهن أو باعتمادهن على رجل كبير قوى يشد من أزهرن.

وبعد تحقيق المدينة الفاضلة التى يحكمها السكم قد يتبقى بعض الرجال الذين سيقضون بقية أيامهم فى رعب يشربون المخدرات، أو يراقبون فى

سلبية وسكينة الأنثى الجديدة المسيطرة. وحيث إن الإناث رحيات فسيزودن الرجال بأجهزة إلكترونية، بحيث إذا وقع أحد الذكور صريع هوى إحدى الإناث فيمكنه مراقبة كل حركاتها وسكناتها بطريقة تشعب غرائزه ودون أن تشعر هي بذلك !.

وحتى لا يقال إن منشور سكم مجرد عبث ومزاح، انظر إلى مبادئ «سيدات نيويورك الراديكاليات»، وهي جماعة جادة تعمل جاهدة لتحرير المرأة، يقول منشور هن: «نحن نقف إلى جوار المرأة في كل شيء، طالما كان في مصلحتها. نحن ضد كل الأيديولوجيات والآداب والفلسفات السابقة، فهي نتاج حضارة الذكور... إلخ».

* عقد الزواج الشامل

طَرَحَت حركات التمرکز حول الأنثى ما يمكننا تسميته «عقد الزواج الشامل»، وهو يشبه عقد استئجار شقة أو شراء أرض؛ إذ يحاول هذا العقد المُبرم بين الرجل وزوجته تغطية جميع الجوانب القانونية وكل الاحتمالات المنطقية والرياضية التي تنشأ داخل الحياة الزوجية. وقد وُصف العقد بأنه «أسلوب جديد للحياة لمواجهة ألفى سنة من التقاليد» (ألفى سنة من التاريخ أيضًا). وهو في واقع الأمر تعبير عن تغلغل أخلاقيات السوق في كل مناحي الحياة، بحيث تُدار مؤسسة الزواج نفسها، آخر مأوى للإنسان، وكأنها شركة مساهمة؟!.

انظر إلى بعض بنوده لترى هل قام العقد فعلاً بتنظيم كل العلاقات:

- لكل طرف في العقد حق كامل في وقته وعمله وقيمه واختياراته، وإن أراد أن ينفق هذا الوقت في كسب المال فهذا من حقه.

- من ناحية المبدأ، يجب أن نقسّم الأعمال المنزلية إلى نصفين 50 - 50،

ولكن يمكن عقد صفقات بتراضى الطرفين، وما فى هذا العقد من شروط هو حقوق وواجبات وليس امتيازات وهبات.

- تقسيم الأعمال: إيقاظ الأطفال فى الصباح - إعداد الملابس والكتب والواجبات والنقود وأبونيهاات الأتوبيس - تمشيط شعرهم - إطعامهم، يتناوب الأبوان القيام بكل هذه الواجبات كل أسبوع. الشراء: تقوم الزوجة بوجه عام بشراء الطعام، أما الزوج فيقوم بشراء الأشياء الخاصة.

- كل من يدعو ضيفاً يقوم بنفسه بشراء الطعام وبالطبخ وغسل الأطباق.

والآن بعد أن أبرم العقد، فلتزفر السعادة الزوجية على الجميع، ولتقضى على سيادة الوحدة المذكرة (التي يسميها العوام الزوج) وتدفعه للتعاون مع الوحدة المؤنثة (المسماه بالزوجة)!

هل فعلاً قام العقد بتنظيم كل العلاقات؟ ماذا لو حدث للرجل حدث تضخم شديد فى ذاته؟ هل يُقضى العقد فوراً أم تنتظر الزوجة حتى تزول الكربة؟ وماذا يحدث لو أن الرجل بعد أن تزوج على هذه الطريقة الليبرالية أصبح ماركسياً أو رجعيّاً ورفض المبادئ المنظمة للعقد؟ ماذا عن المواقف الزوجية المركبة اليومية مثلاً؟.

إن هذا العقد مثل الكمبيوتر، يعطيك إجابات مبسرة ولا يمكنه أن يغطى جميع جوانب الحياة المركبة. وإذا كان العقل الإلكتروني قد قدم للأمريكان الإجابات الخاطئة بالنسبة لحروب فيتنام وأفغانستان والعراق، فإن عقد الزواج الميكانيكى سيضللهم؛ لأن المطلوب هو إصلاح نوعية الحياة نفسها فى ضوء الفوارق الحقيقية بين الذكور الإناث.

* ماذا تريد هذه السيدة؟

كنت أعرف سيدة أمريكية من رائدات حركة التمركز حول الأنثى، وقد زارتني وأسرتني عام 1974، وأبدت رغبتها في التعرف على رائدات حركة تحرير المرأة في مصر. فاتصلتُ بالدكتورة سهير القلماوى -رحمها الله- ففضلت مشكورة بدعوتنا إلى طعام الغداء. وتحدثت السيدة الأمريكية عن المساواة بين الرجل والمرأة وعن تحرير المرأة، وكانت الدكتورة سهير توافقها على ما تقول، إلى أن وصلت إلى نقطة شعرت عندها الدكتورة سهير أن الأمر لم يعد حديثاً عن تحرير المرأة وإنما عن تثويرها ضد الرجل وعزلها عنه.

التفتت إلى الدكتورة سهير وقالت بالعربية: «ماذا تريد هذه السيدة؟ إن أخذنا برأيها، سيكون من المستحيل علينا أن نجمع بين الذكور والإناث مرة أخرى؟». لقد لخصت كلماتها البسيطة الرائعة الفروق الحادة بين حركة تحرير المرأة وحركة التمركز حول الأنثى، بين من يدرك الإنسانية المشتركة ومن يرفضها، بين من يرى أسبقية المجتمع على الفرد ومن يرى أن الذات الفردية هي البداية والنهاية، وأخيراً بين من يضع الإنسان قبل الطبيعة والمادة ومن يرى أسبقية المادة على وعى الإنسان وحضارته وتوجهه الاجتماعى والأخلاقى.

* الأنثوية والصهيونية: ما أشبه هذه بتلك

إذا قارنا بين حركة التمركز حول الأنثى والحركة الصهيونية وجدنا تشابهاً كبيراً، فكلاهما يُقسَّم العالم بطريقة إثنية بسيطة (إناث/ ذكور - يهود/ أغيار)، ويتمركز كل عنصر حول ذاته.

وتدَّعى كلٌّ من الحركتين أنها حركة ثورية، لكن برنامجهما «الثورى» لا يهدف إلى تحقيق العدل بالنسبة لليهود أو للمرأة فى أى مكان من العالم.

فالصهيونية تعادى كل من يحاول الدفاع عن حقوق اليهود الدينية والمدنية خارج إسرائيل! فهذه المحاولة تقوض الهدف الصهيوني (هجرة اليهود من بلادهم إلى إسرائيل). ونفس الشيء بالنسبة لحركة التمركز حول الأثنى؛ فالهدف ليس تحقيق مكاسب للمرأة داخل إطار اجتماعي باعتبارها أمًا وأختًا وزوجة، وإنما الهدف هو الاستقلال التام عن الذكور.

لكل هذا نجد أن البرنامج الثوري لكلتا الحركتين لا ينطلق من الإيمان بالإنسانية المشتركة، وإنما من الإصرار على تفرد اليهود وتفرد الإناث. لذا يصبح الهدف من البرنامج الثوري هو تحسين «كفاءة الصراع» لدى اليهودى والمرأة، وهذا يبين أن النموذج الكامن وراء الحركتين، نموذج صراعى داروينى.

ومن أطرف مظاهر هذا النموذج، حوارى مع السيدة زعيمة حركة التمركز حول الأثنى التى سبق الإشارة إليها، إذ قالت لى مرة: إن العلاقة الجنسية فى الزواج هى مواجهة سياسية political encounter، فضحكت وقلت لها: «أنت لا تعرفين شيئاً، إما عن المواجهة السياسية أو عن العلاقة الجنسية».

ثالثاً: إشكالية التحيز

الثمرة الخامسة بعد المائة...

إحساسى بإشكالية التحيز: البذور والجدور

أُمُرُّ عَلَى الدِّيارِ دِيارِ لَيْلى	أُقْبَلُ ذَا الْجَدَارِ وَ ذَا الْجَدَارِ
وَمَا حُبُّ الدِّيارِ شَغَفَنَ قَلْبى	وَلَكِنْ حُبٌّ مِنْ سَكَنِ الدِّيارِ

أذكر فى صباى أن أستاذ اللغة العربية كان يقرأ معنا المعلقات الشعرية،

التي عادةً ما تبدأ بالبكاء على الأطلال، وكان شديد السخرية منها، مما يعكس تحيزه الشديد ضد حضارته لأنه لم يكن يعرف الهدف من هذه البدايات ولا وظيفتها في بناء القصيدة ولا مضمونها الفلسفي. كنت أدرك (بشكل غير واع) أن البكاء على الأطلال مفعم بالنبل والحزن، وهو علامة على أن الإنسان لا ينسى، لأنه لو نسى وضاعت ذاكرته لكان شيئاً بين الأشياء؛ أي أن البكاء على الأطلال هو رمز الاختلاف الجوهرى بين الإنسان والطبيعة. قد تُلحق الطبيعة الهزيمة بالإنسان، وقد تضطره للرحيل من مكان لآخر، وقد يكون وضع الإنسان في هذا الكون مأساوياً، ولكنه مع هذا يظل معتزاً بما هو إنسانى حتى في لحظة الهزيمة.

بدأت مسألة التحيز المعرفى تطرح نفسها علىّ بعد انتقالى من دمنهور إلى الإسكندرية، إذ لاحظت التباين في العادات والتقاليد (والنماذج الإدراكية) بين المدينة/ القرية المصرية من ناحية وبين المدينة الكوزموبوليتانية (المصرية اسماً، الغربية فعلاً) من ناحية أخرى.

وقد تعمّق فيّ الإحساس بالتحيز حينما بدأت أقرأ في الأديان المقارنة وتاريخ الفن. كما تعلمت من علم الأنثروبولوجيا أن هناك حضارات لا يحتوى النموذج الإدراكى المهيمن عليها إلا على لونين أو ثلاثة، لذا لا يرى أهلها إلا هذه الألوان. وتوجد حضارات لا يعرف أهلها مفهوم «الذات»، لذا إن سألت أحد أفراد هذه الحضارات عن قصة حياته فهو عادةً ما يذكر قصة حياة جده. وحين يقول طفل الإسكيمو: «انظر الثلج»، فإن كلمة «الثلج» في لغته يتم التعبير عنها ربما بخمسين كلمة غير مترادفة، فكل كلمة تعبّر عن شكل معين وحالة معينة للثلج.

وقد قضيت عامًا كاملاً أقرأ عن اليابان وفنونها ومؤسساتها الحضارية، مما عمّق فيّ الإحساس بالآخر وبنماذج الحضارية التي تختلف بشكل جوهرى

عن نماذجنا وكذلك عن المؤسسات والنماذج الغربية، مما ينزع الإطلاق عن الحضارة الغربية، لتصبح تشكيلاً حضارياً ضمن العشرات من التشكيلات الحضارية الأخرى.

وكانت التجربة الحاسمة هي انتقالى إلى الولايات المتحدة؛ فقد واجهنى فى حياتى اليومية الكثير من الأمثلة التى نبهتنى إلى أن إدراكنا للواقع ليس هو الواقع فى حد ذاته، وأن إدراك الآخر لظاهرة ما يختلف عن إدراكنا لها. وتساءلت: كيف أنظر إلى ظاهرة ما؟ هل أنظر إليها من وجهة نظر الآخر (الأمريكى) أم من وجهة نظرى أنا؟.

الثمرة السادسة بعد المائة...

التأثير المتبادل بين التحيز والخريطة الإدراكية

حين وصلتُ إلى الولايات المتحدة عام 1963، دُعيت لمشاهدة مسرحية لشكسبير، فذهبت دون أن أرتدى جاكته أو رباط عنق. فهمس أحد الأساتذة الأمريكين فى أذنى بأنى لا بد أن أرتديهما، وأضاف: «ألا يستحق شكسبير منك ذلك؟»، فاستجبت. ولكن قبل عودتى إلى مصر فى عام 1969، ارتديت الجاكته ورباط عنق للذهاب إلى المسرح مع بعض الأصدقاء الأمريكين، فكنت موضع سخريتهم لأن ارتداء الجاكت كان قد أصبح موضحة قديمة وعلامة من علامات التخشب والتجمد stuffiness، أدركت ساعتها أن الجاكت ليس شيئاً مادياً يستر به الإنسان جسمه ويدفعى بدنه، وإنما هو علامة على شىء ما، لغة كاملة.

ويشير صديقى كافين رايلى فى كتابه «الغرب والعالم» إلى أن تكنولوجيا الطاقة المستندة إلى الهواء والماء كانت متقدمة للغاية فى أوروبا مع نهاية القرن الثامن عشر، وهى تكنولوجيا نظيفة، تعمل مع الطبيعة لا ضدها. ومع هذا

حينما بدأت ثورة أوروبا الصناعية تطورت تكنولوجيا الطاقة المستندة إلى الفحم ثم البترول، وانقرضت التكنولوجيا النظيفة تقريبًا. ويُرجع رايلي هذا التطور إلى التحيز الكامن في النموذج الإدراكي الإمبريالي: بقر بطن الأرض - نهب ما فيها - استهلاك المصادر الطبيعية دون اكتراث بالنظام البيئي وبحق أجيال المستقبل في الثروات الطبيعية.

بعد الصراع الذى ذكرته أثناء مناقشة رسالتى للدكتوراه، وكان صراعًا بين تحيزات مختلفة، رفضت دور النشر الجامعية نشر الرسالة دون إبداء الأسباب، ولم تصارحنى إلا جامعة أوهايو التى أشادت بالرسالة باعتبارها فريدة من نوعها ثم أضافت: «مع هذا فإن جامعة أوهايو قررت عدم نشرها لأن كاتبها قام بالهجوم على إحدى البقرات الأمريكية المقدسة (أى وولت ويتمان!)».

الثمرة السابعة بعد المائة...

التحيز الأبله: التحيز ضد الذات

أصبت بصدمة حقيقية عندما كنت أنا وزوجتى نتناول طعام العشاء مع طالبتين من إريتريا فى منزلنا، وأخذت أمزح مع إحداهما وسألتهما عن نوع الرجل الذى تود الزواج به، فتغلبت على حيائها وقالت: رجل إيطالى، ولما كانت لا تعرف الإيطالية ولم تذهب قط إلى إيطاليا فقد نالت منى الحيرة، حتى اكتشفت أن هذه المنطقة من العالم قد غزتها إيطاليا، فولد هذا فى نفس الفتاة تحيزًا للغازى.

إن إحدى المفاهيم التى تعلمناها باعتبارها بديهة من البديهيات؛ أن مشكلة المشكلات فى التعليم المصرى هى التركيز على حفظ الدروس عن ظهر قلب (ويتمتع بعضهم بأن الحفظ يعود بجذوره إلى التعليم الدينى

وحفظ القرآن). ولكن حين وصلت إلى جامعة كولومبيا (في الولايات المتحدة) عام 1963، فوجئت أنه كان من المطلوب منا في دراسة الماجستير أن نحفظ عن ظهر قلب بعض قصائد الشعر الرومانتيكى. وحين سألت عن السبب قيل لى إن الحفظ يُعد من أحسن آليات إنشاء المودة والحميمية بين الطالب والنص، كما عرفت أن النظام التعليمى فى اليابان لا يحتقر الحفظ على الإطلاق وإنما يوظفه. ثم تعلمنا أن فى كثير من العلوم الإنسانية، بل وفى العلوم التجريبية التطبيقية، لا بد أن يقوم الطالب بحفظ بعض النظريات والقواعد والعناصر الأساسية عن ظهر قلب. فأحسست أن رفضنا الكامل للحفظ يُعتبر تحيزًا أعمى ضد تراثنا، وتحيزًا أكثر عماءً لإحدى مقولات الفكر التقدمى الغربى التى نقلناها وحفظناها عن ظهر قلب كأنها مقولة علمية مطلقة لا يأتيتها الشك من بين يديها ولا من خلفها.

ومن التحيزات البلهاء الأخرى ضد الذات التى بدأت تدخل فى حياتنا التحيز للعامة ضد الفصحى، ويظهر ذلك فى الإعلانات بالعامة ولغة بعض الصحف وغيرها من وسائل الإعلام. وما لا يعرفه هؤلاء المتحيزون أن الدول الغربية تبذل أقصى جهدها فى تمويل مشروعات بحثية تهدف إلى دفع العاميات العربية إلى الأمام لكى تنقطع صلتنا بتراثنا الفلسفى والفكرى والأدبى والاجتماعى والعلمى والدينى، ويعزلنا عن تاريخنا وماضينا الذى يجمعنا كأمة عربية وإسلامية، فتزداد هذه الأمة تمزقًا، وتتحول إلى دويلات صغيرة لا يربطها رابط. إن حلم الفصحى ليس «حلم العودة للماضى»، وإنما «حلم الانطلاق نحو غد» يمسك فيه العرب بزمام أمرهم. أما التحيز للعامة، فهو طريق الهزيمة والسوق الشرق أوسطية التى تهيمن عليها إسرائيل (القوة الأعظم بين هذه الدويلات) وهذا هو التطبيع الحقيقى لإسرائيل.

إن المتابع للصحف اليومية العربية يرى أنها تجسد فى بنيتها التحيزات

المعرفية الغربية دون أن تدري. وإلا فبم نفسر سلوك هذه الصحيفة العربية التي صدرت وفي صفحتها الأولى خبر مثير عن قطارين اصطدما في الهند مما أودى بحياة بضع عشرات، على حين أوردت في صفحتها الأخيرة، صفحة الاجتماعيات والفضائح، خبراً عن عدد الأطفال غير الشرعيين في إنجلترا الذين بلغ عددهم ذلك العام 50% من كل المواليد؟. في خبر الصفحة الأولى كان الضحايا نتيجة فشل تكنولوجيا، وهذا هو الفشل الوحيد الذي تعترف به الحضارة الغربية، فحذونا حذوهم ووضعنا الخبر في الصفحة الأولى. أما الخبر الثانى فهو نتيجة فشل أخلاقى وهذا ليس بفشل من منظور النموذج الحضارى الغربى، لذا نضعه نحن أيضاً في صفحة الاجتماعيات، وكأننا ببغاء عقله في أذنيه.

ومن المظاهر المؤلمة للتحيز للنموذج الحضارى الغربى ما نردده من أن فلاناً قد اكتشف قارة أمريكا أو أستراليا وأن فلاناً قد اكتشف منابع النيل، وكأن هذه المناطق تقع في كوكب آخر ولم تكن مناطق مأهولة بسكانها الذين شيدوا فيها حضارات عريقة، لكن الغرب لا يعترف بأن مكاناً ما قد خرج إلى الوجود إلا بعد أن يدخل في نطاق الغرب المعرفى، ونحن نكرر دعاويهم.

أما التحيز الأبله في مجال الفنون فتراه في تاريخ المسرح العربى الحديث الذى بدأ بترجمة مسرحيات مختلفة عن الفرنسية والإنجليزية، ثم ترجمة النظريات الغربية في المسرح، حتى أصبح المسرح بالنسبة لنا هو المسرح بالمعنى الغربى: مجلس المتفرجون منفصلين تماماً عن العمل الفنى في مواجهة خشبة المسرح التى عادةً ما تغطيها ستارة، ويبدأ العرض بعد رفع الستار وينتهى بإسداها. لقد حرّمنا التبنى المبكر لهذا المفهوم عن المسرح من التعرف على الأشكال المسرحية في تراثنا، والتى يختلط فيها الأداء المسرحى بالسرد القصصى والمقطوعات الغنائية مثل صندوق الدنيا وخيال الظل والسيرة الهلالية والسير البطولية الأخرى.

وأعتقد أننا لو درسنا المسرح الياباني لاكتشفنا عالمًا مسرحيًا مختلفًا تمامًا، فهو مسرح لا يجلس الجمهور فيه في مواجهة الممثلين وإنما يختلطون معهم تمامًا، كما تختلط فيه الأنواع الأدبية بشكل رائع.

الثمرة الثامنة بعد المائة...

التحيز وفرض النموذج الدارويني: من الكابوى إلى توم آند جيرى

إن المتأمل لأفلام رعاة البقر التى طالما عشقناها فى طفولتنا وصفقنا لها، يدرك كيف تنقل لنا هذه الأفلام نموذجًا إدراكيًا إمبرياليًا عنصريًا بشعًا متحيزًا ضدنا. فبطل الفيلم هو الكابوى أو الرائد pioneer، الرجل الأبيض الذى يذهب إلى البرية (أرض بلا شعب) ليفتحها ويستقر فيها ولا يحمل سوى مسدسه. وكلنا يعرف المنظر الشهير؛ حين يقف اثنان من رعاة البقر فى لحظة المواجهة التى يفوز فيها من يصل إلى مسدسه «أسرع» من الآخر. إن هذا المنظر الذى انطبع فى مخيلتنا منذ نعومة أظفارنا، يعلمنا كل أسس الداروينية الاجتماعية: أن الصراع من أجل البقاء هو سنة الحياة، وأنه لا يُكتب البقاء إلا للأصلح، أى الأقوى أو الأسرع أو الأكثر دهاءً ومكرًا، وهى مجموعة من الصفات التى لا علاقة لها بأى منظومة قيمية، دينية كانت أو أخلاقية أو إنسانية. وحينما يظهر الهنود الأشرار، هؤلاء «الإرهابيون» (أصحاب الأرض الأصليون) الذين لا يتركون الرائد الأبيض وشأنه كى يرعى أبقاره ويبنى مزرعته (أى مستوطنته) على أرضهم وأرض أجدادهم، يضطر «المسكين» إلى حصدهم برصاصه حصدًا «دفاعًا» عن الفتاة البيضاء البريئة وعن حقوقه المطلقة! كنا فى طفولتنا نستمتع بكل هذا دون أن ندرك أن الكابوى هو فى واقع الأمر الإنسان الأبيض الإمبريالى الذى نهب ديارنا وثرواتنا وأذلنا، وأنه أيضًا الرائد الصهيونى. ولم ندرك أن الهنود هم نحن،

العرب والفلسطينيون، وأن البرّية، هى فى واقع الأمر، العالم الثالث بأسره، أرض بلا شعب. ولا تزال الملايين تشاهد أفلام الويسترن وتتبنى ما فيها من تحيزات دون وعى.

ولعل تغلغل النموذج الصراعى الداروينى فى نفوسنا يتضح فى هذه القصة الطريفة. كنت أتناول طعام العشاء مع صديقين من المتمسكين بقواعد الدين وأهداب الفضيلة. ثم حان موعد ما يُسمّى «المصارعة الحرة»، وهى أمر يثير لَدَى الغثيان بالفعل. وفوجئت بأن الصديقين يستمتعان بما يريان ويأكلان بشهية غير عادية، فسألتهما: «لو كان رسول الله ﷺ معنا، هل كان سيوافق على هذه المصارعة الحرة؟» فسارع صديقاي بالنفى قائلين: «الرسول ﷺ ما كان ليقبل هذا». سررت من إجابتهما وسألتهما عن السبب، فقالا: «المصارعان لا يرتديان مايوهات شرعية!» لقد نسى الصديقان أن المصارعة الحرة تحول الإنسان إلى كتلة من اللحم تتصارع مع كتلة أخرى من اللحم بمنتهى الشراسة، وتسود حلبة المصارعة قوانين الغابة وتخلو تمامًا من أى مفاهيم إنسانية. نسى الصديقان كل هذا لأنهما تبنيا النموذج الصراعى الداروينى، ولم يبق أمامهما سوى حلم المايوه الشرعى.

ويظهر تبني النموذج الإدراكى الداروينى المتحيز دون وعى فى شغفنا الزائد بأفلام توم وچيرى، والتى تُصنّف فى كل البلاد العربية الإسلامية على أنها حلال وبريئة (فهى لا تحوى صورًا عارية ولا قصصًا ملتهبة ولا دعاية أيديولوجية) لهذا نترك التلفزيون مفتوحًا وأطفالنا جالسين أمامه عُرْلاً، يلتهمون ما يرون. مع أننا لو تأملنا قليلاً لاكتشفنا أن هذه الرسوم المتحركة تجسد نموذجًا إدراكيًا يتضمن تحيزات صراعية واضحة، أى أنها تنقل لنا سمًا زعافًا. فالعالم إن هو إلا غابة داروينية ملأى بالذئاب التى تلبس ثياب القط والفأر، فهما فى حالة صراع دائم لا ينتهى، وعالمهما خالٍ تمامًا من القيم،

ونحن نحب الفأر ونكره القط لا لأنها يمثلان الخير والشر، بل لأن الفأر ذكى ولذيذ، أما القط فغبى وثقيل الظل، أى أن القيم التى تسود العمل، هى قيم نسبية نفسية وليست أخلاقية. كما أن القط هو رمز عالم الإنسان إذ يحرس زادنا وحياتنا من الفأر الذى يسرق كل ذلك، والمطلوب منا أن نبغض الأول ونحب الثانى، نبغض الحضارة الإنسانية ونحب الانطلاقة الطبيعية/ المادية التى لا تحدها حدود أو قيود. كل هذا نُعرِّض أطفالنا له ونظن أنه برىء وحلال!.

الثمرة التاسعة بعد المائة...

كيف نحقق التقدم فى ظل التحيز؟

* لجنة التعمير الحضارى

فى أعقاب حرب أكتوبر، شكَّل الأستاذ هيكل، فى مؤسسة الأهرام، لجنة التعمير الحضارى لدراسة المشروع الحضارى العربى ومستقبله بعد الانتصار الذى حققته الأمة العربية آنئذ نتيجة لتوحد الجهود العسكرية والاقتصادية. وانقسم الحاضرون أمام الإشكاليات التى طرحتها إلى جناحين: جناح يضم الدكتور زكى نجيب محمود والدكتور محمود فوزى ويشاركنى الرأى فى أهمية أن نتحفظ فى استيرادنا للأنماط الحضارية الغربية حتى نحتفظ بهويتنا، وجناح آخر يضم الأستاذ توفيق الحكيم والدكتور حسين فوزى والدكتور لويس عوض، ويرى أن النموذج الحضارى الغربى جدير بالتبنى بأكمله، وأنه لا يوجد نموذج آخر بديل، وأن على العرب أن ينسوا تراثهم وتاريخهم وأن يحدوا حذو أوروبا فى كل شىء. فالتحديث فى رأى هؤلاء هو فى واقع الأمر التغريب، أى اتباع أساليب الغرب فى التفكير والسلوك والتنمية (بحلوه ومره).

* حوار مع توفيق الحكيم

أخبرت الأستاذ توفيق الحكيم أثناء المناقشة أنه قد شكك في بعض كتاباته في قيمة الحضارة الغربية وقيمها، وأنه دعا إلى نهج فلسفى مستقل. تنكر الأستاذ توفيق الحكيم لكتاباته وأصر على أنه لا خلاص لنا إلا بتبنى الحضارة الغربية بحذافيرها. فأخبرته أن الحضارة الغربية تغطى آلاف السنين وعشرات الأنساق الخلقية والتاريخية، فأى غرب هذا الذى سنقلده؟ أهى فرنسا أم إنجلترا أم الولايات المتحدة أم إسبانيا أم روسيا؟ ثم أضفت، حتى أضمن استمرار الحوار: فلتكن إنجلترا التى نعرفها أكثر من غيرها، هنا سيطرح السؤال نفسه مرة أخرى، أى إنجلترا هذه؟ هل إنجلترا العصور الوسطى حين سادت قيم أخلاقية دينية لا تختلف كثيراً عن قيم أى مجتمع تقليدى، أم إنجلترا عصر النهضة حين بدأت فكرة الفردية واقتصاد التجار فى الظهور، أم إنجلترا القرن الثامن عشر وعصر العقل والفلسفات الميكانيكية، أم إنجلترا القرن التاسع عشر وعصر الثورة الصناعية والانقلاب الرأسمالى الاستعمارى وقيم النفعية والعنصرية، أم إنجلترا القرن العشرين والكمبيوتر والمخدرات ووسائل الانتقال السريعة والشذوذ الجنسى وفلسفات الحرية والعبثية واللذة والعدمية؟.

ثم طرحت سؤالاً آخر أكثر جذرية: ما جاذبية مثل هذا النموذج الغربى؟ وما الذى يجعلنا نبتناه ونحن نعرف تكلفته الإنسانية العالية؟ وهل يجب أن نأخذ المخدرات مع الكمبيوتر، وفلسفات العبث والعدمية مع وسائل الانتقال السريعة؟. أصر توفيق الحكيم على أنه لا يمكن تبنى جزءاً من النموذج الغربى وحسب وإنما يجب تبنيه كله. فكان ردى أن الغرب حينما دخل العصر الحديث على هذا النحو، وحينما أفرز المخدرات والعدمية، كان كالبطل المأساوى الذى يجلب على نفسه كارثة دون أن يدري،

وأنا إذا سرنا في نفس الطريق وارتكبنا نفس الأخطاء وانتهينا نفس النهاية فلن نكون أبطالاً ولا مأساويين، وإنما سنكون مهرجين مقلدين لا نستحق حتى العطف أو الرثاء!.

وأضفت قائلاً: إن النمط الغربي لا يمكن تكراره إلا من خلال تبنى السلوك الإمبريالي، وهذا بديل غير مطروح بالنسبة لنا. واستشهدت على ذلك بإحصائيتين في منتهى الدلالة: الأولى بخصوص ما نهبتة إنجلترا من الهند وأنه يفوق كل ما أنتجته إبان ثورتها الصناعية، والثانية بخصوص الرأسمالية الأمريكية وقفزتها الهائلة التي حققتها في منتصف القرن التاسع عشر من خلال عدة عناصر من أهمها صناعة المنسوجات القطنية، والتي تعتمد على محصول القطن الرخيص الذي كان ينتجه آلاف العبيد السود الذين تمت سرقته من إفريقيا وأجبروا على العيش تحت أقسى أنواع الظلم ودون حد الكفاف. إن الإمبريالية ليست غزوة استعمارية ولا مجرد انحراف عن مسار الغرب، وإنما هي من صميم هذه الحضارة.

ثم سألت الأستاذ توفيق الحكيم: «هذه الحضارة الغربية الحديثة لماذا لا تُصدّر لنا القيم النبيلة السامية مع ما تُصدّر من سلع وأشياء؟. من كان يقف ضد التحديث والديمقراطية والاستنارة عبر تاريخ مصر والجزائر وسوريا؟ ألم تكن جيوش أوروبا هي التي قصفت بالمدافع الجماهير العربية التي طالبت بحريتها وحقوقها؟ أليست هذه الجماهير هي التي رفعت لواء القيم الغربية النبيلة السامية وماتت من أجلها، بينما كانت جيوش أوروبا تقف لهم بالمرصاد؟».

ثم سألت توفيق الحكيم عن الممثل الرئيسي للحضارة الغربية في شرقنا العربي، أليست هي الدولة الصهيونية؟ دولة قامت على أرض الآخرين، ولا تستمد شرعيتها من العقل أو الاستنارة أو أى قيم نبيلة أو سامية، وإنما من

منطق القوة وشريعة الغاب. كان رد توفيق الحكيم صادمًا، فقد كان يرى أن النموذج الصهيوني نموذج يستحق أن يُحتذى (وكذلك كان رأى د. حسين فوزى وآخرين).

ومن ضمن قناعاتي الحالية أن الإنسان الذى يؤمن إيماناً أعمى بالنموذج الحضارى الغربى، عادةً ما ينتهى به الأمر بتقبل الدولة الصهيونية. ومن حق أى فرد أن يعجب بأى نموذج، بما فى ذلك نموذج البلد الذى نكّل به واحتل أرضه، وأن يكون مستغرقاً فى الإعجاب بالغازى وبالممتصر (كما هو الحال مع معظم البشر)، لكن ليس من حقه أن يروج لنموذج ما دون دراسة لأصوله وأسباب نجاحه المزعوم ومدى إمكانية استمرار هذا النجاح عبر الزمان.

* سمات متفردة شاذة للكيان الصهيونى:

على الذين يدعوننا لتبنى النموذج الصهيونى أن يدركوا الخصوصية التى تفرّد بها هذا الكيان وجعلته غير صالح للتكرار (كما ذكرنا مع النموذج الإمبريالى الغربى). ولنستعرض سويًا بعضًا من السمات الشاذة لهذا الكيان:

1- لم تنشأ الصهيونية كحركة جماهيرية، وإنما نشأت بين بعض مثقفى الطبقة المتوسطة اليهودية فى شرقى أوروبا ووسطها ممن فشلوا فى تحقيق التقدم الاجتماعى داخل مجتمعاتهم، فأسسوا المنظمة الصهيونية التى كانت تدّعى أنها ستجمع شتات الشعب اليهودى. إذًا نحن هنا أمام ظاهرة فريدة؛ «قيادة سياسية تخلق منظمة، والمنظمة تخلق شعبًا»، على حين أن العكس هو الصحيح فى كل الحركات القومية فى العالم. فالشعب هو الذى يتطلع ويطمح، فتظهر من بين صفوفه النخبة التى تقوم بتنظيم صفوفه لتحقيق هذه التطلعات.

2- والوضع نفسه ينطبق على النظام الحزبي الإسرائيلي؛ فهو النظام الحزبي الوحيد في العالم الذى ظهر إلى الوجود قبل ظهور الجماهير التى يُعبّر عن «مصالحها»، وقبل ظهور الوطن الذى ينتمى إليه، وقبل ظهور الدولة التى يحاول أن يستولى على مقاليد السلطة فيها! فالحزب فى إسرائيل يسبق الشعب والدولة.

3- والجيش أيضًا لا يختلف كثيرًا عن الحزب أو عن الدولة. فعصابات الإرهابيين الصهاينة بدأت مناوشاتها ضد العرب قبل ظهور التنظيمات العسكرية الصهيونية، بل قبل وصول «الشعب اليهودى» ذاته. وقد عبر أحد الشعراء الإسرائيليين عن ذلك بقوله: إن كل الشعوب تمتلك جيشًا، ما عدا الشعب الإسرائيلى فهو جيش يمتلك شعبًا!.

4- وأخيرًا يأتى اعتماد المؤسسات الصهيونية على التمويل الخارجى، فمثلاً فى كلية العلوم تجد أن كثيرًا من الأساتذة حصلوا على تعليمهم فى الخارج، بل قاموا بالبحوث فى بلادهم الأصلية ثم يقومون بنشرها فى الدولة الصهيونية. كما تجد أن المعامل يقوم بتمويلها مليونير أمريكى، أما بيت الطالبات فيموله يهود جنوب إفريقيا. كذلك فإن هناك صندوق جباية خاص بالجامعة العبرية فى الولايات المتحدة. ومن ثم فالنموذج الصهيونى نموذج ممّول طفيل، لا يمكن محاكاته أو تكراره. ولأنه يستمد عوامل حياته من خارجه، فمن المستحسن عدم محاكاته، لأنه مقضى عليه بالزوال إن زالت تلك العوامل.

وبدلاً من أن يكون موضوع الحوار فى لجنة التعمير الحضارى هو:

«كيف نحرز التقدم؟» أصبح «ما التقدم؟».

الثمرة العاشرة بعد المائة...

التيه داخلنا، فأين المضرب؟

لقد نجح الإنسان الغربي الحديث في «تدويل» نماذجه الحضارية والمعرفية من خلال الاستعمار الغربي، وهو ما يُعرف في الوقت الحاضر باسم «الغزو الثقافي». وبالرغم من أن لكل مجتمع رؤيته المتميزة للكون والتحيزات الناجمة عنها، فإن الكثير من شعوب العالم بدأت تتخلى عن رؤيتها وتحيزات النابعة من واقعها التاريخي والإنساني والوجودي، وبدأت تتبنى - عن وعي أو عن غير وعي - الرؤية والتحيزات الغربية، وبدأت تنظر إلى نفسها من وجهة نظر الغرب.

لقد هيمن النموذج الحضاري الغربي على كل الاتجاهات الفكرية العربية (ليبرالية - ماركسية - إسلامية)، وللخروج من هذه الأزمة ينبغي إدراك أن التحيز أمر حتمي لا يمكن الخروج منه كليةً، وبعد ذلك ينبغي التحرك في اتجاهين:

أولاً: التخلص من التحيز لنماذج الغير بقدر الإمكان.

ثانياً: تبني نموذج معرفي بديل نابع من التراث.

* أولاً: كيف الخروج من تيه التحيز الأبله؟

من أجل الإفلات من قبضة النموذج المعرفي الغربي ينبغي:

- دراسة أزمة الحضارة الغربية مع توضيح نقائص ذلك النموذج (نموذج معاد للإنسان - استحالة تطبيق المشروع المعرفي والحضاري الغربي لأنه يستند إلى الإمبريالية وسرقة المصادر الطبيعية من العالم وتوظيفها لحساب الإنسان الغربي - نموذج تتصاعد فيه معدلات

الاستهلاك بما يتجاوز حدود المصادر الطبيعية وما يصاحب ذلك من تلويث مميت للبيئة).

- دراسة انحرافات الحضارة الغربية (العنصرية - النازية - الإمبريالية) لا باعتبارها انحرافات، وإنما باعتبارها جزءاً من نموذج مهيمن.

- دراسة الفكر الغربى المعارض الذى أدرك سلبيات حضارته.

- التأكيد على نسبية الحضارة الغربية، مع دراسة الظروف التاريخية والثقافية المحيطة بظهورها وبروزها.

- الانفتاح على العالم بأسره، وليس على العالم الغربى وحده.

* ثانياً: تبنى «النموذج البديل النابع من التراث»، ويركز هذا النموذج على:

1 - الانطلاق من الإنسان باعتباره كائنًا مُرَكَّبًا غير مَادى (يتميز بثنائية الإنسان والمادة).

2 - الإيمان بالمقدرة التوليدية للعقل ورفض المفهوم التراكمى.

3 - طرح «علم بديل» يؤمن بأن المعرفة اجتهاد مستمر. هذا العلم لا يهدف إلى التحكم الكامل فى الواقع عن طريق إلغاء تركيبية الإنسان والاكتفاء بالمنظور المادى الواحد. ومن ثم فإن هذا العلم الجديد لا ينبغى أن يهدف إلى الدقة المادية المطلقة ولكن إلى اليقين الكامل النابع من إشباع عُصْرَى الإنسان (المادى والروحى).

وإذا كان الخروج من التيه وتحقيق النموذج البديل يحتاج إلى مجهودات هائلة، فإنه ليس من المستحيلات وينبغى علينا المحاولة.
